وعندما اقترب الالمان من الاسكندرية ، هـاجر كثـيرون . وبقيت دون اسرتي لاواظب على الدراسة . وزاد تعلقي بها . ولكن كان الخوف قد بدأ يصـبح وحشا ينهش فيهم جميعا ، وادركت ان هتلر اذا دخل الاسكندرية سيذبحهم . وكانت لا تكف عن البكاء . وكان المصريون من اهالي الحي يتعاطفون معهم ويحيطونهم بحنان عظيم . يعرضون عليهم عناوين اهلهم في القرى النائية ، ويظنون انهم كفيلون بحمايتهم من كل سوء .

تذكرت تلك الليلة في بور سعيد « جريتا » . وشقيقتها لوسي التي كانت تتسـتر علينا . واكبر اخواتها سارة السمراء العربيـة الاسبانية المـلامح التي كانت فتنة الشارع . وتساءلت : ترى اين هن ؟ في مصر . في اسرائيل . مع الذين ذبحوا وطردوا سكان القوارب الراسية في الميناء !.. انـهم يقولون ان المرأة العربيـة تتـوارى واليهوديات يحاربن . هل تكون يد جريتا الرقيقة التي كانت تداعب رأسي ، حاملـة الان بندقية ، تطلق منها الرصاص ؟

انهم على أي حال متفوقون علينا ، وهذه وحدها كارثة لكنها حقيقة . الكل فيهـم يعملون على الاقل . والفتاة مثل الفتى . وتضامنهـم العجيب . اين هـذا منا ومن عاداتنا الاجتماعية . أين معرفتنا بالعالم الحديث من معرفتهـم . أين شياطينهـم السياسيين من باشاواتنا الريفيين . اين ... أين ...

كان تصوري للفجوة الحضارية بينهم وبيننا وقتها بسيطا ويقف عند مظاهر عابرة . لكن هذا الشعور نما معي ومع تطور القضية ومع التمعـن فيما اقرأ وأرى ... ولم يبارحني قط ذلك الشعور الذي كتبت من أجله كتاب « اسرائيليات » قبل حرب ١٩٦٧ ، في موعد يقارب بـدء الثورة الفلسطينية ، لاقول فيه : انه صراع طويل . انه ليس معركة عسكرية واحدة . انه صراع حضاري بكل أسلحة الحرب والسلم . الدمـار والبناء . التنظيم العسكري والمدني . ولا اظنني مخطئا في أن التقدم العربي هو الحل الحاسم اخر الامر .

وقد أعلنت الحرب كما نعلم سنة ١٩٤٨ . وقيل لنا انها نزهة عسكرية . وكـان قرار الحرب في القاهرة محل معارضة البعض ممن شكوا في حكمة ذهاب جيش مصري للقتال « خارج الحدود » . ومن اخرين شكوا في قدرة بلد محتل على القتال والانجليز وراء ظهر جيشنا ، بل وقالوا انها حرب اذكاهـا الانجليز لتحويـل موجة المطالبـة بالاستقلال بعد الحرب العالمية الى مسار آخر . وتهامس الناس بأنه قرار للملـك من وراء ظهر الحكومة . ولكن الحرب هي الحرب . وجرفت العاطفة الشعبية كـل شيء في طريقها وبدت تلك الاراء كقش مبعثر عائم على سطح تيار هادر . واعلـن في القاهرة ان قوة رمزية من القوات الذاهبة الى الجبهة ستمر بشوارع القاهرة الى محطـة السكة الحديد . وجـاء يوم الحشـد . واضربنـا في المدارس . وسرت مع السائرين حول الجنود من حيث خرجوا الى حيث ركبوا القطارات الذاهبة الى غزة . ملايين متحركة من البشر تهتف وتبكي وتضحـك وتقبـل جنود الطابور العسكـري وتتحسس ثيابهم . منذ كم من الاجيال لم نر جيشا لنا يتحرك الى ساحة القتال .

والصحف تحدثنا عن جو مماثل في كل العواصم العربية . واستنفارات تبدو لي الان كاستنفار الفارس القديم لقومه كي يهبوا للثأر للكرامة ، فيهب الناس . شيء يختلف